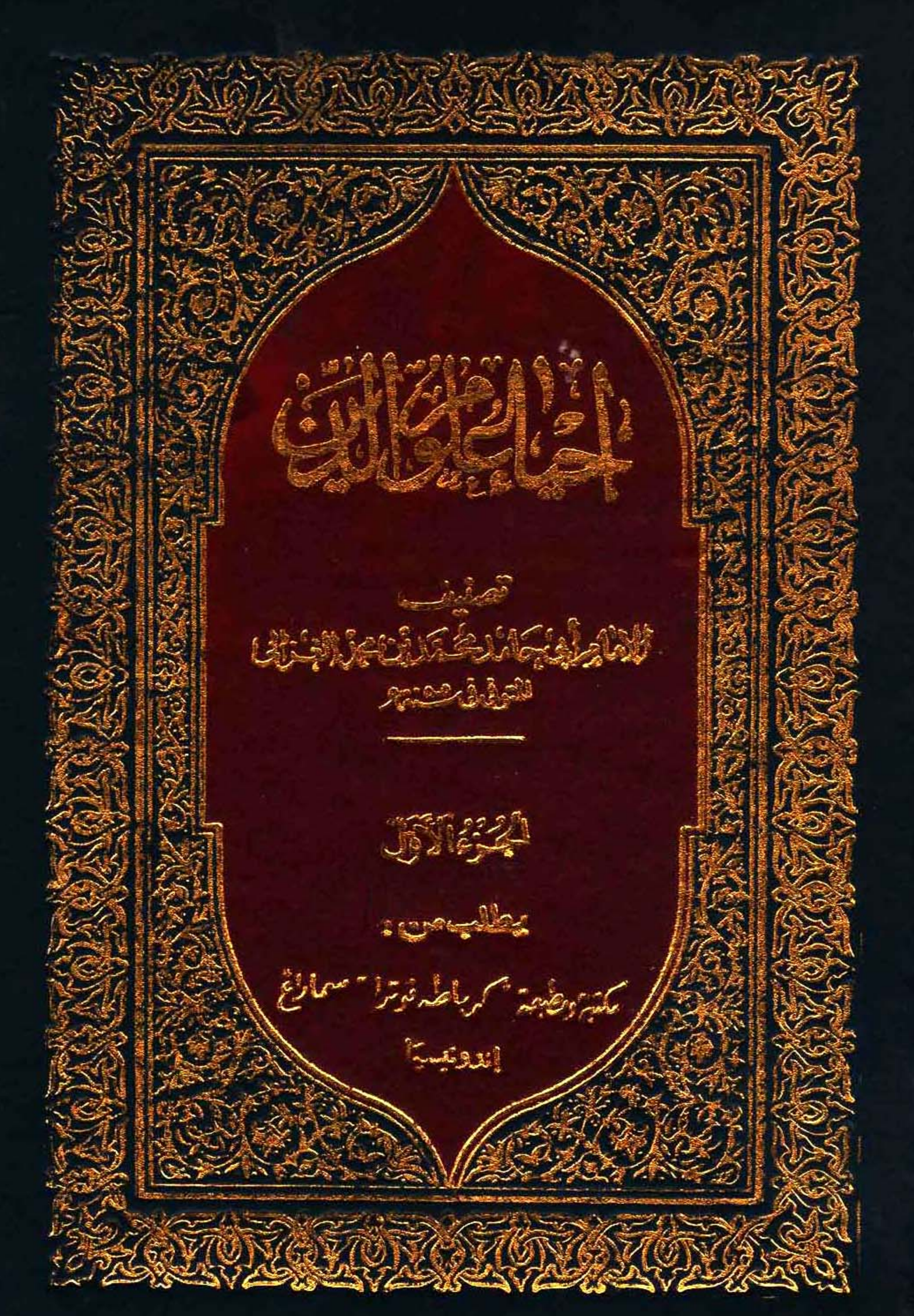

إحياء علوم الدين
تصنيف
الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ
الجزء الأول
يطلب من:
مكتبة ومطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ
اندونيسيا

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

مع مقدمة فى التصوف الإسلامى ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى
وفلسفته فى الإحياء

بقلم
الدكتور بدوى طبانة
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة ومطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الغزالي وإحياء علوم الدين

تمهيد فى التصوف الإسلامى :

— ١ —

جاء الإسلام على فترة من الديانات ، و بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه على فترة من الرسل ، ليعيد لعقيدة التوحيد صفاءها ونقاءها ، ويطهرها من أدران الشرك والوثنية ، وليعدل زيغ البشرية فى عقائدها وعباداتها ومعاملاتها ؛ وليرسى القواعد الأساسية التى تقوم عليها صلة الإنسان بربه ، وتنهض بها علاقته بأخيه الإنسان ؛ وليرسم للناس مقاييس السلوك ، ويتمم مكارم الأخلاق ؛ و يضع بكل ذلك دستوراً لمجتمع قوى سليم ، تصان فيه حقوق الإنسان وحرياته ، وتحدد فيه أعباؤه وتكاليفه فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وكان فى تعاليم الإسلام ونصوص القرآن أكبر باعث على تنمية الضمير الإنسانى .

فقد جعلته تلك التعاليم يعتقد أن عليه رقيباً حسيباً : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ، وهو يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وهو الذى : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

و بذلك يعلم أنه لو خُلِّىَ بينه و بين المعصية لما اقترفها ، لأنه يرى بضميره ذلك الرقيب فى السر ، كما يرى آياته ماثلة شاخصة ، ويراه فى جنح الظلام ، كما يرى الذين يخشاهم فى رائعة النهار وأنها : « إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَاتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

وخلاصة مبادئ الإسلام مبدآن : عملٌ للدنيا وعملٌ للآخرة . يتلخصان فى قوله تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » . وقول الرسول: أعمل لدُنياك كأنك تعيشُ أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ومقتضى العمل للدنيا أن يكون الإنسان فرداً فعالا يؤثر فيما حوله ، ويتأثر بما حوله . وليس للحى مناص من خوض معترك الحياة ، يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ساعياً فى رزق ، أو طالباً لمجد وكرامة ، وتلك سُنّة الحياة وطبيعة الأحياء ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا مادامت السموات والأرض .

وإذا وجدت فكرة التبتل والانقطاع شيئاً من الدعوة إليها ، فإن فى النصوص الصريحة من الكتاب والسنة مايؤيد فكرة العمل ومايحث عليها و يطالب بها فى إصرار وتوكيد ، حتى لتصبح فكرة التبتل والانقطاع وسيلة لكبح جماح النفس ، والمبالغة فى طلب الحياة والحرص عليها ، واستسلام النفس للنزوات وحب الشهوات .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق شاهد على ذلك ؛ وهو القدوة لكل مسلم ، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ومنتهى القول فيه أنه إنسان كامل : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

وآثاره صلى الله عليه وسلم فى العمل والكسب كثيرة ، منها قوله : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » . وروت عائشة رضى الله عنها أن النبى صنع شيئاً ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغه ذلك . فحمد الله ، ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه ؟ فوالله إنى أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية !

هذا العمل نفسه ، وإن كان للدنيا ، وإن كان الفرد يتحرى به خيره أو خير غيره ، عملٌ للآخرة إذا ما اتبع فيه الحق ، وأنصف نفسه من غيره ، وأنصف الناس منه ، وابتغى بذلك الإنصاف وجه الله والدار الآخرة ، وراعى أصول العقائد والعبادات التى تكون بين العبد وربه ، لاتتجاوز تلك الدائرة إلاّ قليلاً .

وهكذا كان القصد والاعتدال من سنن الإسلام ، الذى يمقت الغلو أشد المقت . فالإسراف فى النفقة رذيلة ، والمسرف من إخوان الشياطين ؛ مع أن بذل المال مطلوب ، وكنزه يوجب العقاب : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . ولكن الذى يضيع ماله على خلاف مقتضى العقل والشرع ، ولوفى الخير كبناء المساجد ؛ سفيهٌ ينبغى الحجر عليه ومنعه من التصرف فى ماله .

والذى يعنت نفسه فى ضروب العبادات ويبالغ فيها مسرفٌ ، كالمنبت الذى لايقطع أرضاً ، ولا يبقى ظهراً . ومثله سواء بسواء المقبل على الدنيا ، العاكف على لذتها ، المتهالك على عرضها الزائل ، الذى شغل بها عما عند الله ، وغفل عن حقّ ربه ، وحق دينه ، وحق غيره فيما عنده .

— ٢ —

كذلك كان الإسلام ، وكذلك كانت سماحة الإسلام : فرض على المسلم صلاةً وزكاةً وصوماً وحجًّا ؛ وكتب عليه جهاداً لايقوى عليه إلا بحسن التدبير الذى يستلزم صحة الأبدان وصحة العقول ، وإعداد المال والرجال ، من غير طغيان حق على حق ، أو إيثار العاجلة على الآجلة .

وسار المسلمون هذه السيرة فى الصدر الأول ؛ حتى آل الأمر إلى مُلك عضوض ، أصبحت فيه السياسة فنًّا لايتحرج فيه عن الوسيلة فى التماس الغلبة ، وطغت المادية على رجال الحكم ، وقلدهم فى ذلك رعاياهم ، فأقبلوا على الدنيا وعكفوا على ضروب الخداع واللهو ، واتخذوا الجوارى والقيان ، وسكنوا القصور ، وعمروا الأرض ، واصطنعوا الملاذ التى كان يترفع عنها المسلمون فى الصدر الأول ، وحاموا حول الشبهات ، واستهتروا بها ، وتأولوا فى استباحتها آى القرآن وسنة النبى .

وقد كان للخلفاء بنى أمية سياستان اقتضاهما الحفاظ على الملك فى بيتهم يتوارثه أبناؤهم وخلفاؤهم ، فهم يتبعون سياسة القمع و يعملون السيف والعسف مع الخارجين عليهم من أهل العراق الذين كانوا شيعة لعليّ وأهل بيته ؛ وهم يبتلونهم بالجفاة الغلاظ من الولاة والعمال ؛ على حين يصانعون أشراف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقمين على سياسة بنى أمية تتطلع إليهم ، فترى الخلفاء يلينون لهم فى القول و يتجاوزون عن مسيئهم ، و يشجعون حياة اللهو والترف فيهم بما يغدقون عليهم من العطاء ، ليشغلوهم عن التطلع إلى الخلافة و إلى مناصب الدولة .

أما ذوو الجاه الذين مدّ لهم السلطان فى الأسباب فظلوا سادرين فى لهوهم وترفهم . على حين يئس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا .

وكان هذا اليأس من المنصب والحرمان من البر والفرار من الفتنة التى حدثت فى صفوف المسلمين ، مدعاة لعكوفهم على العبادة والزهادة ؛ فانطووا على أنفسهم ، يتذاكرون كتاب الله وسنة نبيه ، و يشغلون أنفسهم بقصص الوعظ والزهد ، والتصبر بما وعد الله الصابرين من الأجر وجزيل الثواب .

عاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منهما نصوص الترغيب فيما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليجعلوه منهجهم فى الدار الفانية ؛ ورأوا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله وكسب رضاه ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله ، وهم يوقنون أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب التى دنسها حبّ الدنيا التى استغرق أكثر همها طلب العاجلة ؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطان: « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ » .

والأصل هو معرفةُ الله تعالى ، ثمَّ سلوك الطريق إليه ، فأما أمر الآخرة فيكفى فيه الإيمان المطلق ، فإن للعارف المطيع معاداً مسعداً ، وللجاحد العاصى معاداً مشقياً ، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط فى السلوك ، لكنه زيادة تكميل للتشويق والتحذير [1] .

وذلك الأصل هو الذى أفنى فيه أولئك زهرة حياتهم ، وهو الذى أنفقوا فى التعرف عليه جل ما وهبوا من عقل وتفكير ، وهو الذى ساقهم إلى التدبر فى فهم آثار الصنعة ، حتى يتسنى لهم الوصول بهـا إلى المعرفة الحقة بالصانع ، وتلك المعرفة غاية فى ذاتها ، إذ بها يصبح العبد ربانياً،وفى درك تلك الغاية السّعادة الحقة ، وكل مايصطنعه العبد من عمل ومجاهدة إنما هو للوصول إلى تلك الغاية ، غاية المعرفة .

ولا تـكون تلك الغاية لمن نظر إلى غير الخالق ، لأن النظر إلى غيره عمّى عنه ، وغفلة عن طريقه ، ولا يجمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد ، كيف وهو يجد عند الله كل ما يريد [2] ، و إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالـكلية فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس .

(١) الغزالى : جواهر القرآن ١٢ (طبعة الرحمانية ــ القاهرة ١٣٥٢ هـ)
(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ٣/١ (مطبعة بولاق ــ القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

والطريق إلى الله يستلزم أمرين : الملازمة والمخالفة . والملازمة ملازمة ذكر الله تعالى، والمخالفة لما يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . وليس فى هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه ، فإنهما معاً . أوَ ما سمعت قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ؟! .

بل مثل الطالب والمطلوب مثل صورة حاضرة مع مرآة ، ولكن ليست تتجلى فى المرآة لصدأ فى وجه المرآة ، فمتى صقلتها تجلت فيها الصورة ، لا بارتحال الصورة إلى المرآة ، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ، ولكن بزوال الحجاب ، فإن الله تعالى متجل بذاته لا يختفى ، إذ يستحيل اختفاء النور ، بل بالنور يظهر كل خفاء ، والله نور السموات والأرض .

وإنما خفاء النور عن الحدقة لأحد أمرين : إما لكدورة فى الحدقة ، وإما لضعف فيها ، إذ لا تطيق احتمال النور العظيم الباهر ، كما لا يطيق نور الشمس أبصار الخفافيش . . . والنور يتجلى فى بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح ؛ وفى بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة، وذلك بحسب صفاء المرآة وصقالتها وصحة استدارتها، واستقامة بسط وجهها ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة [1] » .

ومن هذا الدليل المادى كان الاتجاه العملى إلى جلاء النفس وصقلها ، وسبيل ذلك مجاهدة النفس وإحكام مخالفتها بالانصراف عن الدنيا ، والعكوف على العبادة ، وترويضها بطول الخلوة والسياحة والصوم وقلة الطعام فى الفطر وكثرة الذكر ، وغير ذلك من وسائل حمل النفس على غير ما تشتهى .

ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام ، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولئك الزاهدين فى الدنيا وزينتها .

— ٣ —

وكانت بعد ذلك حركات عقلية اقتحمت أودية التفكير الإسلامى ، ونبهت المسلمين إلى ألوان من المعرفة لم يكن لهم من أكثرها حظ ؛ وضروب من التفكير لم يسبق لهم مزاولتها ، والأمة الإسلامية تتطلع إلى احتلال منزلتها ؛ وبناء مدنيتها على تلك الأسس الوطيدة التى أرسى دعائمها الإسلام، وهو دين البشرية الذى بعث صاحبه إلى الأسود والأحمر : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » وهو رسول الله وخاتم النبيين .

ولذلك كان على حماة هذا الدين والقوامين عليه أن يطوّفوا بكل جهات المعرفة ، ويقفوا على ما عند غيرهم من أبناء الأمم من ضروب المعرفة وألوان التفكير ، حتى لا تخفى عليهم زاوية من زوايا العقل ، ولذلك لم يقفوا عند حدود النصوص ليؤمنوا بها إيماناً مطلقاً ، ولم يعودوا يكتفون بالإيمان المجرد . بل أحسّوا بضرورة البحث فى أسس هذا الإيمان وضرورة تطبيقه على العقل . وقد وجدوا فى نصوص الدين ما يحث على ذلك النظر وما يشجع على إعمال العقل والتفكير

وكانت هنالك أمم سبقتهم إلى البحث والتفكير فى الكون وخالقه ، والحياة وما وراءها ، والإنسان فى

(١) جواهر القرآن للغزالى ١٢

حياته وموته وبعثه . وكان لتلك الأمم تراث خلفه علماؤها، وورثه حكماؤها الإنسانية لتنظر فيه ، وتنقص منه أو تزيد عليه، ما وسعها الزيادة وما وسعها التهذيب والتصحيح .

وجد المسلمون في جمع ذلك التراث ونقله إلى لسانهم العربي ، حتى إذا اجتمع لهم منه شيء كثير ، أخذوا في تفهمه ومدارسته ، وجدّوا في تمحيصه وتطبيقه على ما ورثوه من دين ومعرفة وعقيدة وعبادة ومعاملة وسلوك .

وقد بلغ هذا التيار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجريين . ففي هذين القرنين كانت أودية العلم تموج بتلك التيارات الفكرية الطارئة التي حذقها كثير من المسلمين ، وعظم بذلك سلطان العقل ، وطغى الجدل بين العلماء طغيانا كاد يُنسى كثيرا منهم الأصل الذي ورثوه عن إسلامهم وعروبتهم .

فالحكمة الهندية وفلسفة فارس وفلسفة يونان ومنطقهم ، كل ذلك أصبح يجرى على ألسنة العلماء والمتكلمين من المسلمين ويشغل بالهم ، ويدعوهم إلى البحث في دينهم وأصول عقائدهم على ضوء هذه المعرفة التي جدّت على بيئتهم ووجد فيهم من يتعصب لتلك الثقافات الطارئة ، ومن يؤثرها على ثقافته الأصيلة ، إلى جانب الذين وصلوا هذه بتلك ، وكوّنوا من هذا المزاج زاداً جديداً للعقل العربي الإسلامي .

وعاد الأمر إلى أولئك الزهاد الذين صدفوا عن الدنيا وزينتها ، ولم تعد السلبيّة التي كانوا يؤثرونها تقبل منهم في هذا المجتمع المضطرب ، فقد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة ، سواء أكان ذلك المنهج منهجا نظريا ، أم منهجا عمليا . ولذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة فكرتهم في الحياة حتى تنهض على أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غيرهم سلوكهم في الحياة .

الإمام الغزالي

وقد أنجب القرن الخامس الهجرى علماً من أعلام الفكر الإسلامي ، هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي ، ويجمل بنا أن نشير إلى شيء من تاريخ هذا الإمام ، لنقف من هذا التاريخ على العوامل التي تظاهرت على تكوين هذه العقلية الفريدة ، وألوان الثقافة التي احتشدت في ذهنه ، وجعلته أهلا لأن يحتل تلك المنزلة الجليلة بين زهاد المسلمين ومتصوفيهم وأنباه مفكريهم .

وفي مدينة طوس(١) وفي منتصف القرن الخامس الهجرى (٤٥٠ هـ) ولد أبو حامد من أب عفّ القلب واليد يغزل الصوف ويبيعه ، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم ، والفقهاء في دروسهم ، والوعاظ في مجالسهم ، يستمع إليهم ، ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة ، ويلاطفهم بما يفضل من قوته وحاجته . وكان

---

(١) طوس : مدينة بخراسان . بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ، فتحها المسلمون في أيام عثمان بن عفان ، وبها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، وبها آثار إسلامية جليلة .

قال ياقوت : خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه مالا يحصى ، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي وأبي الفتوح أخيه .. (معجم البلدان ٦/ ٧١).

تأثره بتلك المجالس وما يدور فيها من فنون العلم والوعظ عظيما ، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولداً من صلبه يجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يعلمون الناس أمور دينهم ، ويبصرونهم بخير الحياة الدنيا والآخرة .

واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين : أحدهما أبو حامد الذى نتحدث عنه ، والآخر أخوه أحمد الذى اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة (١) .

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح وصّى بأبى حامد وأخيه صديقا له من أهل التصوف . وقال له : إنّ لى لتأسّفا عظيما على ما فاتنى من التعلم ، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدىّ هذين ، فعلّمهما ، ولا عليك أن ينفد فى سبيل ذلك جميع ما أخلفه لها !

وأنفذ الصوفىُّ وصيته ، وأقبل على تعليمهما ، حتى فنى المال القليل الذى خلّفه أبوهما ، وتعذر عليه المضىُّ فى تعليمهما أو تقديم الطعام الذى يقتاتان به . ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التى تقدم لطلاب العلم فيها الغذاء والكساء . وقد أحسن الرجل بذلك صنعاً إلى هذين اليتيمين الذين لا عائل لهما ولا مال يعينهما على الحياة ، ولذلك كان الغزالى يقول وهو يذكر هذا الصنيع: « طلبْنا العلمَ لغير الله فأبى أن يكونَ إلا لله » . ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش ، يُجْرى عليهما بسببه ما يُجْرى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الغاية الحقيقية من طلب العلم ، وهى معرفة الله تعالى حق المعرفة !

هذا أبو حامد يقرأ فى صباه طرفا من الفقه ببلده (طوس) ثم يسافر إلى (جرجان)(٢) ويأخذ عن أبى نصر الإسماعيلى ، ثم يرجع إلى طوس ، فيقيم بها إلى ماشاء الله حتى يرتحل إلى (نيسابور)(٣) فيلازم إمام الحرمين أبا المعالى الُجوينِىّ ، ويجد فى طلب الفقه ، فيبرع فيه وفى الجدل والمنطق والفلسفة ويفقه كلام أهل تلك العلوم ، ويتصدى للرد عليهم ، وإبطال دعاواهم ، ثم يقصد(العسكر) بعد وفاة إمام الحرمين ، ويلقى فيها الوزير نظام الملك ، ويناظر فى مجلسه الأئمة والعلماء ، ويقهر مناظريه ، حتى يعترف الجميع له بالفضل ، ويأمره نظام الملك بالتوجه إلى (بغداد) والتدريس فى المدرسة النظامية ، فيقدمها سنة ٤٨٤ هـ وفى تلك المدرسة يعظم مجده ، ويتألق نجمه ، ويذيع صيته ،

---

(١) هو أبو الفتوح أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى الملقب مجد الدين . قال ابن خلكان : كان واعظا مليح الوعظ ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ ، فغلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبى حامد لما ترك التدريس زهادة فيه ، واختصر كتاب أخيه أبى حامد المسمى بإحياء علوم الدين فى مجلد واحد ، وسماه (لباب الإحياء) وله تصنيف آخر سماه (الذخيرة فى علم البصيرة) وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلا إلى الانقطاع والعزلة . . وتوفى أحمد بقزوين فى سنة عشرين وخمسمائة [انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٠٧ ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٣٠٠هـ]

(٢) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، فبعض أهلها من هذه وبعضهم من هذه . قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وقد خرج منها صفوة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . قال الإصطخرى : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة من كبرائهم . ولجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان (راجع معجم البلدان ٣ / ٧٥ طبعة السعادة ١٩٠٦ م)

(٣) نيسابور : بلد كثير الفواكه والخيرات ، كان المسلمون قد فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والأمير عبد الله بن عامر ابن كريز فى سنة ٣١ صلحا ، وقيل إنها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وإنما انتقضت فى أيام عثمان ، فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية .

حتى ليقال إن مجلس الغزالى كان يحضره ثلثمائة عمامة من أكابر العلماء . وأصبح مضرب المثل فى التدريس والإفادة ؛ تشد إليه رحال طالبى العلم وأهل الورع . ولكن نفسه تصد عن المنصب والجاه ، ويرى أن العلم مع شرفه ، والتعليم الذى يقوم به ، غير خالصين لوجه الله تعالى ، بل باعثهما ومحركهما طلب الجاه وبعد الصيت ، فتيقن أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشفى على الهلاك إن لم يسرع بتلافى ماهو فيه .

وحينئذ يظهر عزمه على الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام ، ولكنه لا يصرح بنيته حذراً أن يطلع الخليفة وجلة الأصحاب على عزمه المقام بالشام ، فيتلطف بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد وهو ينوى ألا يعاودها أبداً ؛ واستهدف بذلك لأئمة أهل العراق ، إذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الإعراض عما كان فيه سبباً دينيا ، فقد ظنوا أنه بلغ المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

وقد ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بَعُد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وإما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق به والانكباب عليه وإعراضه عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوىّ ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت الإسلام وزُمرة أهل العلم !

وفارق بغداد ، بعد أن فرق ما كان معه من المال ، ولم يدّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخّصاً بأن مال العراق مُرْصَدٌ للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم ير فى العالَم مالاً يأخذه العالِم لعياله أصلح منه . ودخل الشام ، وأقام به ما يقرب من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، فكان يعتكف فى مسجد دمشق ، يصعد منارته طول النهار ويغلق بابها على نفسه ، حتى رحل إلى بيت المقدس ، يدخل كل يوم الصخرة ، ويغلق بابها على نفسه .

ثم تحركت فيه داعية الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسار إلى الحجاز ؛ حتى جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن نية الرجوع إليه .

وفى تلك الرحلات صدفت نفسه عن الدنيا ، ولبس الخشن من الثياب ، وقلل طعامه وشرابه ، وصار يطوف المشاهد ويزور المقابر والمساجد للعظة والاعتبار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القُرَب والطاعات ، وفى هذه الأثناء ألف هذا الكتاب (إحياء علوم الدين) حتى رجع إلى بغداد فحدّث به .

عاد الغزالى بعد ذلك إلى خراسان ، وانقطع للعبادة ، وآثر العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، حتى طلب إليه فخر الملك بن نظام الملك أن يقوم بالتدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ولكن الغزالى تأبّى وقال : أريد العبادة ! فقال له : لا يحلّ لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك ! فدرس مدة يسيرة .

يقول الغزالى فى ذلك : ترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تعللاً بالعجز عن إظهار الحق

بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة . وبلغ الإلزام حداً كان ينتهى — لو أصررت على الخلاف — إلى حد الوحشة . فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة . وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بعسر معاناة الخلق، والله تعالى يقول : « أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . » الآية . ويقول عز وجلّ لرسوله ، وهو أعز خلقه : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ » . . . فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله تعالى على رأس هذه المائة، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات، ويسّر الله تعالى الحركة إلى (نيسابور) للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . . .

قال : وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ؟ فإن الرجوع عود إلى ما كان ! وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيّتى . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيّتى وقصدى وأمنيّتى ، يعلم الله ذلك منى !

وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أُختَرم دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك ، لكنه حرّكنى ، وأنى لم أعمل ، لكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولا ، ثم يصلح بى ، ويهدينى ، ثم يهدى بى [1] .

وأخيرا يعود الغزالى إلى طوس بعد المدة التى قضاها فى نيسابور ، ويتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية ، ويوزّع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، حتى توفى فى رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ .

❀

ذلك ما استطاعت صفحات التاريخ أن تعيه من حياة أبى حامد الرجل فى هذه الحياة الدنيا .

أما عقليته ، فقد رأينا أن هذه السطور لا تكاد تصورها الصورة الكاملة ، ولن تجد فى هذه الترجمة إلا الحديث عن فقره وورعه وعلمه وزهده ، وقد لا يجد القارىء فى هذه الصورة شيئا غريباً ، إنها صورة عادية تمثل رجلا نشأ فقيراً ، فزهد كرها أو طوعاً ، وتصوف راضيا أو مضطرا .

وتلك الملامح كثيرة الوجود فى البيئات الإسلامية فى عصر أبى حامد وفى غيره من العصور الإسلامية .

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : ص ١٤٤ (الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٥٥ م) .

وإنك لواجدٌ العلم الدينى يطلبه الغنىّ والفقير ، والعلم العربىّ يجرى فى المجالس والمدارس والمساجد ميسراً لطالبيه ، ولا يكاد يكلفهم نفقة ولا جهداً .

بل ربما كان طلب هذا العلم باباً من أبواب الرزق ، وسبيلا من السبل التى يسلكها الكثيرون من طالبى الحياة لأجل القوت، حتى يقووا على السعى والكدّ فى طلبها ، أو حتى يفتح لهم هذا العلم نفسه باباً ، ويهيئ لهم بين العلماء منزلة تهيئ لهم منصباً وجاهاً ، ينالون به الحظوة والزلفى عند أصحاب الملك والسيادة والسلطان ، فتدر لهم أخلاف العطاء، وينالون بالعلم ما يشتهون من زينة الدنيا وترفها . وهذاما تؤكده قصة الصوفىّ مع أبى حامد ، بعد استهلاك القليل الذى خلفه أبوه له ولأخيه ؛ واضطراره لأن يدخلهما مدرسة كأنهما من طلبة العلم . ويؤكده أيضاً كلمة الغزالى السابقة : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ! »

ولا شك أن كثيراً من شباب المسلمين قد سلك تلك السبيل التى سلكها أبو حامد ، ولكنهم لم يتمتعوا بما متع به من العقلية الصافية والذكاء الخارق والإخلاص للعلم ، والتفانى فى طلب الحقيقة ، بسلوك سبيلها ، وهو سبيل شاق طويل ، لا يقوى على سلوكه إلا أولو العزم من الباحثين الصابرين ، الذين إذا التوى بهم طريق ، ووجدوه لا يوصل إلى الغاية ، جددوا العزم وشحذوا قوتهم وطلبوا غيره ، ووجدوا فى هذا العناء وفى تلك المصابرة والمثابرة متعة لنفوسهم وراحة لعقولهم الجادة فى طلب المعرفة .

الشك عند الغزالى :

عاش الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى نضجت فيه العقول واستوت أودية التفكير وتعددت روافده ، بين أصيل ودخيل ، وآخذ من هذا وذاك . واختلفت أساليب المعرفة ، ومناهج البحث عن الحقيقة التى ينشدها كل مفكر . وكثر المتكلمون فى العقائد وفى أصول الدين ، وفى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفى المذاهب والديانات ، وفى أفعال العباد وغاياتهم .

وكثر المتكلمون فى كل مسألة من تلك المسائل ، واختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيما ، حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة ، والمذاهب المتباعدة يصبح ضرباً من المستحيل .

وتبدو الصعوبة فى أعظم صورها أمام كل باحث يريد أن يختط لنفسه خطة بين هذه الخطط الكثيرة والأكثرون يتخيرون لأنفسهم طريقة من الطرق المسلوكة يعكفون عليها ؛ ويفقهون نهجها ، ثم يغالون بها ما وسعتهم المغالاة . وربما كانت مقالتهم دون غيرها من المقالات ، وربما كانت أدلتهم دون أدلة غيرهم ، ولكنهم فى الواقع يؤثرون السلامة بالبحث فى دقائق إحدى النواحى ، على حين يغفلون غيرها أو يلمون بها إلماماً عامًّا ، ولم يتسع لهم الوقت للإمعان فى المناهج الكثيرة التى تباين منهجهم ومقالتهم .

وأمام هذا الغلو فى الاعتقاد والتعصب لرأى أو لمنهج أو طريق سلوك ، ورفض كل ما عدا أولئك ، يجد الباحث المجدد نفسه أمام تيار من التردد ، وسيل من الشك فى أى الطرق يختار لنفسه ، إن كان لا يرى التقليد فى إيثار هذا المذهب على ذاك .

وجد الغزالى نفسه بين هذه المذاهب التى لا تكاد تحصى ، وأمام تلك الاتجاهات التى يستحيل التوفيق بينها ، فبدأ حيث بدأ غيره يلم بأطراف من الثقافة السائدة ، ونفسه تتطلع للمزيد ، وإذا المزيد الذى يريده اليقين يسلمه إلى شك طويل ، وإذا هـذا الشك يبدو أمامه فى كل أثر ، ولـكنه لا يسرع إلى النفى ، ولا يسرع إلى اليقين ؛ فإن قلبه وعقله لا يرضيان بما رضى به غيره من الاتباع . ولذلك اضطره الشك إلى المـكابدة فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرَق ، مع تباين المسالك والطرق ، وإلى الجرأة من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار .

إن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق — كما يرى الغزالى — بحر غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منـه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجى ، و « كلّ حزبٍ بما لديهم فرحُون » ، وهو الذى وعد به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » فقد كان ما وعد أن يكون !

ورأى الغزالى أن أصحاب الأديان كان التقليد ، كما كانت الوراثة ، السبب فى نشأتهم على اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ، فصبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوُّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . والحديث المروىّ عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ويُنَصِّرانه ويمجّسانه ! » .

ويحكى الغزالى عن نفسه فى « المنقذ من الضلال » أنه لم يزل فى عنفوان شبابه ، منذ راهق البلوغ قبل العشرين إلى أن أناف سنّه على الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور، لا خوف الجبان الحذور ، ويتوغل فى كل مظلمة ، ويتهجم على كل مشكلة ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين مُحِقٍّ ومُبطل ، ومتسنِّن ومبتدع ، لا يغادر باطنيا إلا أحب أن يطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا أراد أن يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا اجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا حرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا ترصّدَ ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا إلا تجسس وراءه للتنبّه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

ويقف الغزالى عند قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » ويتحرك باطنه إلى معرفة حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هـذه التقليدات التى أوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فيقول فى نفسـه : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ ويظهر له أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . ويعلم أن كل ما لا يعلمه على هذا الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى !

فهو يتطلب المعرفة الحقة ، المعرفة التى ترادف اليقين ؛ وكان يوقن فى قرارة نفسه بتلك النظرية الثابتة « إن الحقيقة لاتتعدد » ولكنه يرى التعدّد فى الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب ؛ إذن لا يكون الحق إلا ديناً واحداً ، ومذهباً واحداً ، ومقالةواحدة . أو بعبارة أخرى لا يكون المعتقد إلا واحداً ؛ والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحداً ؛ والتفكير المستقيم هو الذى يسلم إلى هذه الغاية .

ولكن الأديان متعددة ، والمناهج شتى ؛ تفيض بها أودية التفكير ؛ إذن فلا بد أن تكون هنالك عوائق ، حالت بين العقول و بين النهج السوىّ ؛ لآفة أصابتها ، أو علة اعترتها ؛ فكان هذا التعصب للملل والنحل ؛ والناس عبيد لما عرفوا ، وأعداء لما جهلوا .

❁

سبل المعرفة :

قلنا إن الغزالى ابتدأ طريق المعرفة بالشك فيما هو حاصل لدى بعض العقول ، وفيما هو مسلم به لدى بعضها دون البعض ، وهو يبحث عن طريق الأمان ، ولا أمان إلا بالعلم اليقينى الذى لايقبل الشك ولا التردد ، وطبيعته تأبى التعدد ، فما الوسيلة إلى هذا العلم اليقينى الملزم للفطرة الصافية والعقل السليم ؟

نشد الغزالى هذه الوسيلة فى الجليات ، وهى الحسيات والضروريات ؛ لتكون الوسيلة فى فهم المشكلات ، ليتيقن أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط فى الضروريات ، من جنس أمانه الذى كان من قبل فى التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، أم هو أمان محقق لاغدر فيه ، ولاغائلة له ؟

وأقبل بجد يبالغ فى تأمل المحسوسات والضروريات ، وأخذ ينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها ؟ وانتهى به طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسه بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات ؟ إنّ أقواها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ؛ ويكذبه حاكم العقل ويخونه ؛ تكذيباً لاسبيل إلى مدافعته . فقد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً !

لعلّ سبيل تلك الثقة هو العقليات التى هى من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والإثبات لايجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً .

هنا لايجد الغزالى سبباً واقعياً واحداً ينفى به الثقة بهذه الحقائق العقلية ، التى يلتقى عندها أصحاب العقول قاطبة ، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم ؛ ولكنه رجل شك كما أسلفنا ؛ فلا بد أن يجرى مع مذهبه فى التشكك ، ولكنه لايستطيع أن ينفى الثقة بالعقليات عن سبيل العقل ، ولاعن سبيل التجربة والحس والمشاهدة ، وإذ ذاك يلتمس الشك من سبيل الجدل والسفسطة ؛ ويخترع لذلك قياساً عجيباً ؛ فيزعم أن المحسوسات جادلته وناقشته وحاجّته قائلة : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل فكذّبنى ؛ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، ولعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلّى كذّب العقل

فى حكه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لايدل على استحالته ؟

وتتوقف النفس فى جواب ذلك قليلا ، وتؤيد إشكالها بالمنام ، وتقول : أما تراك تعتقد فى النوم أموراً ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ ، فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ماتعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها؟ . ولعل تلك الحالة ماتدعيه الصوفية أنها حالتهم إذيزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم، وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لاتوافق هذه المعقولات ، ولعل تلك الحالة هى الموت ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف مايشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

خطرت له تلك الخواطر ، وهو فى غمرة الشك والارتياب ؛ إنه يبحث عن يقين يجعله محور البحث ، ونقطة يبدأ منها سبيل الأمان ؛ ليسير نحو الغاية المنشودة بخطا ثابتة ، لاتنتقل إلا إذا اطمأنت إلى سلامة ماقبلها ، وعرفت أنها تسير فوق أرض صلبة .

وحاول أن يخلص من هذا الظن ، وأن يقطع الشك باليقين فلم يتيسر له ، إذ لاوسيلة إلى القضاء على تلك الشكوك إلا بالدليل ، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن تلك العلوم الأولية مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل !

إن نفى الاعتماد على الحواس فى سبيل إدراك العلم اليقينى اعتماداً على بعض مايبدو من خداعها قد يكون له مايسوغه . ولكن هنالك من طرق الكشف مايمكن معه تصحيح تلك الأخطاء والأوهام ، وقد نبه الغزالى نفسه إلى شىء من هذا يمكن به تحقيق بعض الشبه العارضة . ولكن ماذهب إليه من جواز تفنيد أحكام العقل لايجد مسوغاً إلا هذا القياس الذى رأيناه ، وفيه من الضعف مافيه ؛ إذ أن التفكير السليم إذا خضع للمنطق واعتمد على المقدمات الصادقة كانت أحكام العقل والنتائج التى تفضى إليها نتائج نهائية فى كل زمان وفى كل مكان .

أكبر الظن أن تلك الآراء ؛ كانت رد فعل لما أحدثه الطبيعيون والفلاسفة فى بيئات التفكير الإسلامى ، وهيام بعض المقلدين بآرائهم واعتناقهم إياها ودفاعهم عنها وعن أصحابها ، مباهاة للجمهور الذى قد يجهل كثيراً من تلك الأفكار الطارئة ، ولايعى إلا الأفكار التى أخذها عن الإسلام وتراث العروبة ، ورأى انفنائها عن تحصيل هذا العلم الطارئ ، الذى لاصلة له بمعتقده ولا أثر له فيه ، ولاسيما أن هذا اللون من المعرفة منسوب إلى جماعة من القدماء ؛ يعرف عنهم قبل كل شىء أنهم من أهل الوثنية . وقد صرح بهذا الغزالى فى التهافت ، وأنه رأى طائفة يعتقدون فى أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ،

واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوقى عن المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ؛ ولا مستند لكفرهم غيرُ تقليد سماعىّ إلفىّ ، كتقليد اليهود والنصارى إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ؛ وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغيرُ بحث نظرى صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما اتفق لطوائف من النظار فى البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط [1] وبقراط [2] وأفلاطون [3] وأرسطوطاليس [4] وأمثالهم؛ وإطناب طوائف من متبعيهم ، وضلالهم فى وصف عقولهم وحسن أصولهم ورقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ، لفرط الذكاء والفطنة ، باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة. فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخراطا فى سلكهم ، وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ، ظنا بأن إظهار التكايس فى النزوع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال ، فأية رتبة فى عالم الله أخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً، دون أن يقبله خُبراً وتحقيقاً [5]؟ .

وقع الغزالى فى هذه الأمشاج من المقالات والدعاوى ،ووجد نفسه أمامها ؛ فأملت عليه تلك الآراء فيها ، وهو رجل يبرأ من الحول والطول ، ويسلم وجهه لله ، ويؤمن بأن الهدى هدى الله ؛ وكم من حسٍّ فتنَ صاحبه فأرداه؛ وكم من عقل أضل صاحبه فأغواه عن سبيل الرشاد .

فلما رجعت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، رجعت الضروريات العقلية عنده مقبولة موثوقاً بها عن أمن ويقين .

---

(١) هو الفيلسوف المشهور ولد بأثينا سنة ٤٧٠ ق . م وكان من تلاميذ فيثاغوس، واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية وأعرض من ملاذ الدنيا ورفضها ، وأعلن بمخالفة اليونانيين فى عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة ، فثوروا عليه العامة، واضطروا ملكهم إلى قتله .

(٢) هو يعض علوم الفلسفة، وهو سيد الطبيعيين فى عصره ، وكان قبل الاسكندر بنحو مائة سنة ، وله فى الطب تآليف مشهورة فى جميع العالم ، وفى صدور كتبه وصايا جيلة من التحنن والشفقة على النوع ،وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والحسد .

(٣) أحد أساطين الحكمة من يونان، أخذ عن فيثاغورس وشارك سقراط فى الأخذ عنه ، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلا بعد موت سقراط ، وصنف كتبا مشهورة فى فنون الحكمة ، وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق ، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرجين عليه ؛ وسمى الناس فرقته المشائين لأنه كان يعلم تلاميذه الفلسفة وهو ماش .

(٤) هو تلميذ أفلاطون لازمه عشرين سنة ، وكان أفلاطون يؤثره على سائر تلاميذه ويسميه العقل ، وإلى أرسطاطاليس انتهت فلسفة اليونانيين ،وهو خاتمة حكمائهم ، وهو أول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وجعلها آلة للعلوم النظرية حتى لقب بصناعة المنطق ، وله فى جميع العلوم الفلسفية والأدبية كتب مشهورة، وهو صاحب المنطق ، وكان أرسطاطاليس معلم الأسكندر ابن فيلبس ملك مقدونية، وبآدابه عمل فى سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وبسبب أرسطاطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى البلاد الإسلامية .

(٥) الغزالى : تهافت الفلاسفة : ص ٣ (المطبعة الخيرية ـ القاهرة ١٣١٩هـ).

ولم يكن السبيل إلى ذلك نظم الدليل وترتيب الكلام ، بل كان السبيل نوراً قذفه الله تعالى فى صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيّق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى « فمن يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يشرحْ صدرَه للإسلام » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » ! فقيل : وما علامته ؟ فقال . « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » وهو الذى قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلٰهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصُّد له ، كما قال عليه السلام « إن لربكم فى أيام دهرِكم نفحاتٍ ، ألا فتعرضوا لها » .

ولم يرد الغزالى بذلك كفّ نفسه ، أو كفّ الناس ، عن الدرس والتأمّل والبحث ، اعتماداً على هذا النور الذى لايأتى إلا نفحات ، وفى بعض الأحايين ، ولكنه أراد أن يعمل كال الجد فى الطلب حتى يُنْتَهَى إلى طلب مالا يطلب ، ومالا قدرة على إدراكه ، وهو الذى يحتاج إلى ذلك النور الذى يقذفه الله تعالى فى قلوب المصطفين الأخيار من عباده .

٭

وإذا كان الغزالى معدوداً فى أئمة فلاسفة الإسلام ؛ فإن ذلك حق ، إذا أريد به أنه صاحب رأى وصاحب فكرة حرة ، لاتسير فى ركاب فِكَر أخرى ، مهما يكن حظها من الذيوع ؛ وحظ أصحابها من الجد فى دنيا التفكير .

وإذا كان الغزالى معدوداً فى رأس المتصوفة التقية الزاهدة الورعة ، فإن ذلك حقٌّ أيضا ، ولكن ينبغى أن يكون معروفاً أنها ليست صوفية البُلْه من العوام ، ولكنها صوفية الخاصة ، صوفية مستنيرة جادة مجاهدة فى طلب المعرفة، وسبيل الوصول عندها إلى الحقيقة ذلك الجد الذى يقتحم كل واد من أودية المعرفة : المعرفة التى يرضاها ؛ والمعرفة التى ينكرها ، والمعرفة التى قد يسلِّم بها ولكنه لايأخذ بها .

وهى صوفية تقف فى وجه الابتداع، وتقف أيضاً فى وجه التقليد ، صوفية تفند مزاعم الهواة من أهل العقل ، وهى فى الوقت نفسه تحترم أحكام العقل التى لاتقبل المنازعة ؛ حتى لوعدها بعض الجامدين خروجاً على الدين ومخالفة لنصوص سادت فى بيئاتهم ؛ إنه يؤول تلك النصوص تأويلًا يجارى به أحكام العقل وأحكام الطبيعة ؛ ويطعن فى صحة النص إذا عارض أحكام العقل المسلم بها وأحكام الطبيعة الراهنة الشاخصة ، ويذهب إلى أن الإصرار على تقبل تلك النصوص على مافيها مضر بالإسلام ومشكك فى صحة العقيدة .

انظر إليه وهو يحصى أقسام الخلاف بين الفلاسفة و بين غيرهم من الفرق ، ويذكر قسما من هذا الخلاف ، لايصدم مذهبُ الفلاسفة فيه أصلا من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه ، كقولهم : إن كسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه و بين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر فى ظل الأرض

انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة .

إن هذا الفن لا يحاول الغزالي أن يخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض من الدين ، ويصرح بأن من يظن أن المناظرة في هذا من الدين ، فقد جنى على الدين وضعّف أمره ، لأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة ، ومن اطلع عليها وتحقق أدلتها ، حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب في الشرع . وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ! .

فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » فكيف يلائم هذا ما قالوه ؟ يقول الغزالي : ليس في هذا ما يناقض ما قالوه ، إذ ليس فيه إلا نفي وقوع الكسوف لموت أحد أو لحياته ، والأمر بالصلاة عنده . والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع ، من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحبابا ؟ .

فإن قيل : فقد رُوي أنه قال في آخر الحديث : « ولكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي . قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ؛ وإنما المرويّ ما ذكرناه ، كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ؟ ! فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة أن يصرّح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ؛ فيسهل عليهم طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك !

وهذا لأن البحث في العالم عن كونه حادثا أو قديما ، ثم إذا ثبت حدوثه ، فسواء أكان كرة أم بسيطاً ، أم مسدّساً ، أم مثمّناً ؛ وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، أم قلّ ، أم كثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي ، كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها ، وعدد حبّ الرمان ، فالمقصود كونه من فعل الله تعالى فقط كيفما كان !

إنّ مثل هذه العقلية الواعية ، هي العقلية التي تخدم الدين ، وتبسط ساحته ، وتدعو إليه ، وترغّب فيه ، لا العقليات الجامدة التي تقف في سبيل كل علم ، وتعترض على كل نظر واجتهاد وتعده من الأمور المحدثة ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة في النار . حتى حار كثير من المسلمين في تقبل ألوان المعارف التي لم يكن للسلف عهد بها ، خشية أن تكون من تلك البدع التي تقود صاحبها إلى غضب الله ، وإلقائه في جهنم وبئس القرار . وبهذا التردد وقف الركب بدل أن يتقدّم ، وأحجم حيث يجب أن يُقدِم . وزعم بعض الغافلين أن الدين نصّ ينبغي الوقوف

عند حروفه ودلالات ألفاظه ؛ وماليس في هذه النصوص فالإسلام منه براء ؛ وهو لغو يجمل بالمسلم أن يتحاشاه إن أراد الحفاظ على عقيدته . وغفلوا عن أن صاحب الدين هو صاحب الدنيا ، وأنه واهب العقول ، كما ألقى فى القلوب الهدى ، وهداها إلى الإيمان ؛ وأنه أمر بالسعى كما أمر بالنظر والبحث فى ملكوته ، لتبين آياته للمتوسمين .

الباحثون عن الحقيقة :

وهم السالكون سبل طلب الحق ؛ وإن شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحقيقة مطمع ؛ إذلا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته .

وقد بحث عنهم الغزالى فى عصره فألفاهم أربع فرق :

(١) المتكلمون : الذين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

(٢) الباطنية : الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

(٣) الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

(٤) الصوفية : وهم الذين يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

وقد درس الغزالى مباحث هذه الفرق ، وأمعن فى درس مناهجها فى البحث .

الغزالى وعلم الكلام :

ابتدأ بعلم الكلام فحصّله وعقله ، وطالع كتب المحققين من المتكلمين ، وعرف أن غايتهم حفظ عقيدة أهل السنة عن تشويش المبتدعين . فقد أطلق الله ألسنتهم لنصرة السُّنّة بكلام مرتّب ، يكشف عن تلبيس أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة . وقامت طائفة منهم بما ندبهم الله إليه ، فأحسنوا الذّبّ عن السُّنّة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النُّبُوّة ، والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة .

ويرى الغزالى بأنه صادف علم الكلام وافياً بالغاية التى كان لها ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشف نفسه ولم يف بمقصوده ، لأنه لم ير الاستقلال كاملا فى بحوثه والتجرد فى طلبه ، بل ألفى المتكلمين اعتمدوا فى سبيل غايتهم على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى التسليم بها التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، ولأن أكثر خوضهم كان فى استخراج مناقضات الخصوم ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات بشىء أصلا . ثم إنه لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه ، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذّبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، فخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، ولم يكن من ذلك مايمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق .

ولذلك لم يجد الغزالى علم الكلام وافيا بمراده ، ولا شافيا لدائه . وإن كان لاينكر أن هذا العلم قد شفى نفس غيره ووفى بمقصوده ، بل لا يشك فى حصول ذلك لطائفة ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد فى بعض الأمور . والغزالى

يحكى بذلك حاله ولا ينكر على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضرّ به آخر !

الغزالى والفلسفة :

وثنّى بعلم الفلسفة ، درسه فى سنتين ، ثم لم يزل يواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، يعاوده ويردّده ، ويتفقد غوائله وأغواره ، ويطلع على مافيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل .

وقد رأى الفلاسفة أصنافاً ، ورأى علومهم أقساماً .

عرف منهم (الدّهريين) الذين جحدوا الصانع المدبّر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه ، وبلا صانع . ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

وعرف منهم (الطبيعيين) الذين أكثروا البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، مااضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، إلا أنهم يرون لاعتدال المزاج تأثيراً عظيما فى قوام قوى الحيوان به ، فظنوا القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وأنها تبطل ببطلانه ، وإذا انعدم فلا يعقل إعادته ؛ فالنفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

وعرف منهم (الإلهيين) من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطاليس الذى رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم ، وحرر مالم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجا من علومهم . وهؤلاء بجملتهم ردوا على الدّهريين والطبيعيين وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ماأغنوا به غيرهم ، وكذلك ردّ بعضهم بعضا . ولهم شيعة من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابى .

أما العلوم التى خاض فيها أولئك الفلاسفة فقد حصّل أقسامها ودرس مباحث كل منها ، وأعلن رأيه فيها ، وهى العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية والخلقية ، وتكلم عن آفاتها وعما يتعلق منها بالدين ، ومالا يتصل به أولا يؤثر فى العقيدة الوقوف عليه . فالرياضيات التى تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية نفيا وإثباتا ، بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . ولكن تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح وفى وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ؛ ويقول : لو كان الدين حقا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم

فى هذا العلم . فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الدين بهذا القدر ؛ ولا مستند له سواه ؛ مع أن الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا لكل صناعة .

والثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادّعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك فى برهان ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى أو الإثبات .

وبهذا الأسلوب عالج الغزالى سائر أقسام علوم الفلاسفة ، وخلص من دراسته بأن علومهم غير وافية بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

الغزالى ومذهب التعليم :

وعرف ما عند أولئك الذين يسمون أنفسهم (التعليميين) الذين شاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، وبحث عن مقالاتهم ، واطلع على ما فى كتبهم ؛ وهنالك عامل خارجى أعانه على هذا البحث ضميمة للباعث الأصلى من الباطن فى طلب المعرفة ، وذلك هو ورود أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعه مدافعته .

وخلاصة رأى الغزالى أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة . ولكن شدة التعصب دعت الذّابّين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم فى كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم فى دعواهم « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ودعواهم أنه « لا يصلح كل معلم بل لا بد من إمام معصوم » وظهرت حجّتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين فى مقابلته ؛ فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً . ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا : هو ميت ! فنقول : فمعلمكم غائب .

فإذا قالوا : معلمنا قد علّم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول : ومعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : « اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته !

ويورد بعد ذلك طائفة من مقالاتهم ، ويجتهد فى البرهان على إبطالها . ثم يقول : فهؤلاء أيضاً جرّبناهم ، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم فى إنكار الحاجة إلى التعليم بكلام قوىّ مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات علمه ،

وأفدنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن سلّمت لى هذا فاطلبه ، فإنما غرضى هذا القدر فقط ! . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا فتضح ، ولعجز عن حلّ أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فلما خبرهم نفض اليد عنهم ، إذ لم يجد معهم شيئاً من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .

الغزالى والصوفية :

و بقى من طوائف الباحثين عن الحقيقة طائفة (الصوفية) ، وقد علم أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وحاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

يقول الغزالى : وكان العلم أيسر علىّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكىّ رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجُنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى ، قدس الله أرواحهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدّل الصفات . . . وعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

ولقد أثنى الغزالى على الصوفية ثناء عظيما ، وامتدح سيرتهم ، بعد أن عكف على دراستهم علما وعملا واقتداء وتجرداً ومجاهدة نفس ، حتى انتهى إلى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السِّير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل إنه ليذهب إلى أنه لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوّة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

و بالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة ، طهارتها — وهى أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ؟ !

وهو على مذهبه فى حرية البحث ، وفى حرب التقليد ؛ لا يقرهم على كل شىء إقراراً مطلقاً ، بل إنه ليصف بالخطأ ما تذهب إليه بعض طوائفهم مما يجرى على ألسنتهم ، ممن يقولون بالحلول ، ومن يقولون بالاتحاد ، ومن يدّعون الوصول ؛ وغير ذلك مما يعده أثراً من آثار عدم القدرة عن الإفصاح عما يرون وما يشاهدون من آثار عظمة الله ، إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبّر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح (١) .

❁

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٣١ — الطبعة الثانية .

آثار الغزالى :

تلك لمحات من الجهود المضنية التى بذلها الغزالى فى العلم وتحصيله ، وفى سبيل البحث عن الحقيقة ، بالبحث عن طالبيها ، والوقوف على ما عندهم من فنونها ؛ مع تمحيص مقالاتهم والفحص عن حقيقة مذاهبهم وعلومهم ؛

ولا نشك فى أن الذين أبلوا مثل هـذا البلاء أقل من القليل ، فقد جرت الغالبية العظمى من المفكرين على أن يتخذوا لأنفسهم منهجاً واحداً لا يكادون يتعدونه ، وتهديهم الملابسات إلى فكرة واحدة يحومون حولها ، أو يحصرون أنفسهم فى دائرتها ؛ ولا يكادون ينظرون إلى ما حولها من سائر الآراء والأفكار ، على ذلك النحو الذى ذكرنا طرفاً منه .

وإنك لتعجب لتلك الآثار التى خلفها الغزالى ؛ فإنها على كثرتها المعجبة تفيض بصنوف من المعرفة المتخصصة وتجد فى كل أثر منها لوناً خاصاً متميزاً عما عداه ، وتجد فيه ما تنشد من العمق والأصالة ، وإنك لتراه فى كثير من المواضع إذا قارب فكرة من الأفكار ، أو مشكلة من المشكلات ، يكون قد درسها فى كتاب آخر ، فإنه يشير إلى الكتاب الذى عرض فيه لتلك الفكرة ، أو درس فيه تلك المشكلة ، وتراه ينفر من تكرار نفسه ، وتلك دلالة القوة والتمكن .

ومن تلك الآثار التى خلفها :

(١) كتاب إحياء علوم الدين : وسنخصه بشىء من الدراسة .

(٢) كتاب تهافت الفلاسفة : درس فيه مقالات الفلاسفة ، وبين أغلاطهم ، التى حصرها فى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

(٣) كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد : فى مقدار مائة ورقة يحوى لباب علم المتكلمين .

(٤) كتاب المنقذ من الضلال : ذكر فيه غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وما قاساه فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق .

(٥) كتاب جواهر القرآن : أبان فيـه عن أسرار من آيات القرآن ، وأنه البحر المحيط المنطوى على أصناف النفائس .

(٦) كتاب ميزان العمل : وهو فلسفة دينية توضح ماجاء فى علوم الدين من الغايات والمقاصد .

(٧) كتاب المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى .

(٨) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ذكر فيـه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه .

(٩) كتاب القسطاس المستقيم : ذكر فيه طريق رفع الخلاف بين الخلق ، وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم .

(١٠) كتاب المستظهرى (١١) كتاب حجة الحق (١٢) كتاب مفصل الخلاف فى أصول الدين . وفى هذه

الكتب الثلاثة تعرض لمذهب التعليمية و يبين فساد مذهبهم .

(١٣) كتاب كيمياء السعادة : حصر فيه الشبه التى توهمها أهل الإباحة وكشفها .

(١٤) كتاب البسيط (١٥) كتاب الوسيط (١٦) كتاب الوجيز (١٧) كتاب خلاصة المختصر . وهى كتب تبحث فى علم الحدود الموضوعة للاختصاص بالأموال والنساء والمعاملات ، وغيرها من المباحث الفقهية .

(١٨) كتاب ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل : فى أربعين مجلداً .

(١٩) كتاب المستصفى (٢٠) كتاب المنخول . وهما فى أصول الفقه .

(٢١) كتاب المنتحل فى علم الجدل (٢٢) كتاب معيار العلم (٢٣) كتاب المقاصد .

(٢٤) كتاب المضنون به على غير أهله (٢٥) كتاب مشكاة الأنوار (٢٦) كتاب محك النظر (٢٧) كتاب أسرار علم الدين (٢٨) كتاب منهاج العابدين (٢٩) كتاب الدرر الفاخرة فى كشف علوم الآخرة (٣٠) كتاب الأنيس فى الوحدة (٣١) كتاب القربة إلى الله عز وجل (٣٢) كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار (٣٣) كتاب بداية الهداية (٣٤) كتاب الأربعين فى أصول الدين (٣٥) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٦) كتاب المبادئ والغايات (٣٧) كتاب تلبيس إبليس (٣٨) كتاب نصيحة الملوك (٣٩) كتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل (٤٠) كتاب إلجام العوام عن علم الكلام (٤١) كتاب الانتصار (٤٢) كتاب العلوم اللَّدُنِّيَّة (٤٣) كتاب الرسالة القدسية (٤٤) كتاب إثبات النظر (٤٥) كتاب المأخذ (٤٦) كتاب القول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل (٤٧) كتاب الأمالى .

ومن هذه الكتب ماهو ضخم رحب المادة ، ولكن بعض هذه الآثار صغير لايرقى إلى درجة الكتاب ، ولكنه ربما كان أشبه بالمقالات التى تقضيها المجادلات فى موضوع من الموضوعات ؛ أو إزالة شبهة من الشبه العارضة .

وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا الإنتاج الضخم يدل أصدق دلالة على أن صاحبه من الذين وقفوا حياتهم على العلم ؛ وتبتلوا فى محرابه ، كما يدل على إخلاص للدين ، وتفان فى سبيل الذود عن حياضه ؛ إلى مايدل عليه من كثرة التحصيل وغزارة المعرفة ؛ والحياة المباركة التى هيأ الله سبيلها ووفق إليها .

كتاب إحياء علوم الدين

— ١ —

ذكر المؤرخون أن الغزالى حدّث بكتاب الإحياء ، بعد عودته إلى بغداد من رحلته إلى بلاد الشام ، أى بعد تلك الفترة التى عزفت فيها نفسه عن الدنيا ، وزهدت فيها وقطع فيهـا ، العلائق بينه و بين الناس ، وذكروا أنه كان يحدّث بهذا الكتاب فى مجالس الوعظ ، وروى ابن النجار أن الغزالى « لم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث » والذى يفهم من ظاهر هذا الكلام أن ماحدث به الغزالى فى بغداد من كتاب إحياء علوم الدين كان إلهاماً أو كان ثمرة من ثمرات المعرفة التى أفاضها الله عليه فى مرحلة نسكه وتصوفه .

هذا ولا نستطيع أن نقر هذا المفهوم على إطلاقه ، فنقول مع القائلين: إن كل ما فى « إحياء علوم الدين » كان وحياً أو إلهاماً ، وأنه كان ثمرة لحياة العزلة والتأمل التى قضاها فى دمشق و بيت المقدس وفى البلد الحرام .

ونحن فى هذا لا ننكر أثر النسك والخلوة فى تطهير النفس وتصفيتها و إطلاقها من قيود المادة ، فإن فى قطع العلائق بالحياة والناس ، إبقاء على كثير من الجهود التى يستنفدها الاضطراب فى الحياة والاتصال بالناس ، وانشغال القلب بأقوالهم وأعمالهم وتزاحمهم فى طلب الحياة .

لا ننكر أثر التصفية والتخلية فى إرهاف الملكات وتنقية الروح من الشوائب التى تقعد بها عن بلوغ درجة التفكير المجرد فى هذا الملكوت ، وفى الخلق والخالق ، وفى البداية والنهاية ، وفى مذاهب السلوك وفلسفة الأخلاق .

بل إننا لا نشك أن الخلوة وطول التأمل وكبح جماح النفس من أعظم أسباب تحرير الروح من قيود المادية ، وفيها أكبر عون على تنظيم التفكير ، وتعقل ما فى الكون من الماديات ، وما ينطوى فيها من الآيات ، وما يختبئ وراءها من الأسرار التى أعيت على العقول

ولكننا ننكر كل الإنكار أن يكون ما فى « الإحياء » من الأصول الفقهية ، والمسائل الشرعية ، وقواعد العبادات ونحوها شيئاً جديداً ألهمه الغزالىّ فى رحلاته أو أوحى به إليه فى خلواته ، ونرى فى مثل هذه الدعوى سذاجة قد يشك فيها البُلْه من العوام ، بله غيرهم من طبقات المفكرين .

وننكر كل الإنكار أن يكون ما اشتمل عليه « الإحياء » من النصوص وما استشهد به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً عرفه الغزالىّ من غير معلِّم ولا كتاب ، وقد ثبت أن تلك الأحاديث مرويّة معروفة خرّجها المخرجون من رواة الأحاديث والعالمين بإسنادها ورواياتها .

كل ذلك لا شك فى بطلانه بحكم العقل و بحكم الشرع أيضاً .

ولا شىء من هذه الدعاوى يرتفع به الغزالىّ بين الباحثين أو المفكرين أو رجال الصوفية، إذا كان هنالك من يريدون له تلك المنزلة بين الباحثين والمفكرين والمتصوفة عن مثل هذا الطريق التى لا يرضاها الغزالى لنفسه .

إن تلك الأصول وتلك النصوص ليست مجال وحي ولا مجال إلهام ، وكيف الإلهام بحاصل موجود يعرفه العامة و يعرفه الخاصة ، وليس فى تحصيله كبير عنت ولا مشقة لمن يريد المعرفة والتحصيل ؟!

وإنما الجهد أو الاجتهاد، الذى لا ننكر فيه أثر الخلوة وتصفية النفس ، فهو ما علَّل به لتلك الأحكام وما جمعه منها ، وما نظم به طرائق البحث فيها ، وما أرجع به الدين إلى فطرته ، ليكون عملًا واجتهاداً ، كما كان معتقداً و إيماناً ، وفى « الإحياء » من ذلك الشىء الكثير الذى يدل على طول الباع، كما يدل على سعة الاطلاع ، و يدل على صفاء النفس وطهارة القلب ، كما يدل على الجهد والعناء فى الرواية والدراية ، وفيما تقدم الكثير من الأدلة على ذلك .

تنقل الغزالى بين خراسان والعراق والشام والحجاز ، فماذا وجد فى تلك البلاد التى تعد معاقل للإسلام ؟

وجد فيها خلفاء أبطرهم السلطان وفتنتهم الدنيا ، وحولهم من الرعية من يفتتل لهم بين الذروة والغارب، وفيهم

الصابر يأساً ، والمصعّر خدّه تيهاً ودلالاً ، وألفى رجال الدين فى شغل عن الدين ، يبتذلونه فى استرضاء السلطان ، وإشباع نهمه فى الاستعلاء والكبرياء ، والكل عن الدين لاهون ، إلا بالقدر الذى تدرّ به معايشهم ، وبين هؤلاء وأولئك طائفة تدعى المعرفة ؛ وتتخذ دين الله هزواً ، وترى الآخذين به جهلةً من الطغام ، ومن عوام الدهماء ؛ والأخذ به غفلة وجموداً ، حتى زاد الخطب وعمت الرزية، وأحوج الأمر إلى من يذكر بالله ، ويحث على التدبر فى آياته ، والرجوع إلى دينه الحق وصراطه المستقيم .

إلى هؤلاء وأولئك أشار الغزالىّ فى خطبة « الإحياء » إذ وجد فى الناس المثابر على ماهو عليه من العمى عن جلية الحق،مع اللجاج فى نصرة الباطل وتحسين الجهل والتشغيب[1] على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم إلىّ العمل بمقتضى العلم ، طمعا فى نيل ماتعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب . . وأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيّلوا إلى الخلق ألاّ علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ، أوجدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ! فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السّلف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ، وضياء ، ونوراً وهداية ، ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسياً منسيا .

ورأى الغزالى ما آل إليه الأمر ثلماً ملماً ، وخطبا مدلهما فى الدين ، وأن الاشتغال بتحرير هذا الكتاب فيه إحياء لعلوم الدين ؛ وكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاح لمناهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين[2] .

وقد ذكر أن أمثال هذه البحوث ليست جديدة مستحدثة ، فقد صنف الناس فى المعانى التى ألف فيها كتبا ، ولكن كتابته تتميز عن كتاباتهم بخمسة أمور :

الأول : حل ماعقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى : ترتيب ما بدّدوه ، ونظم مافرّقوه .

الثالث : إيجاز ماطولوه ، وضبط ماقرروه .

الرابع : حذف ما كرروه، وإثبات ماحرروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا : إذ الكل وإن تواردوا

---

(١) التشغيب : تهييج الشر

(٢) إحياء علوم الدين : ص ٩ من هذه الطبعة .

على منهج واحد ، فلا نستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه و يغفل عنه رفقاؤه . أولا يغفل عن التنبيه ، ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب . أولا يسهو ، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف.

وما قرره صحيح ، يعترف له به كل باحث وكل دارس وكل مؤلف ، إذ لابد لصاحب الموضوع من الرجوع إلى الجهود السابقة فيه ، ليعرف مواضع النقص ومواطن الخلل ، ثم يحرر من تلك الجهود مايستحق التحرير ، ويضيف إليه ماعنده من المعرفة فيه ، والتحرير جهد يقتضى الإحاطة ، و الإضافة هى مايمتاز به جهد عن جهد ، ويفضل بها الكاتب سواه من الكاتبين .

أو بمعنى آخر لابد من العنصر الذاتى والأصالة فى كل عمل له وزن بين الأعمال ؛ ليحسب صاحبه بين رجال المعرفة بالموضوع ؛ وقد أشرنا إلى مجال الذاتية فى الكلمات السابقة .

ولقد ذكر الغزالى نفسه أن العلوم التى تحصل فى القلب فى بعض الأحوال تختلف الأحوال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنها ألقيت فيه من حيث لايدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى (الإلهام) .

والذى يحصل بالاستدلال يسمى (الاعتبار) و (الاستبصار) ويختص به العلماء .

ثم الواقع فى القلب بغير الحيلة والتعلم والاجتهاد من العبد ينقسم إلى :

(١) مالا يدرى العبد كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وهذا يختص به الأولياء والأصفياء .

(٢) مايطلع العبد معه على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب ، وهذا يسمى (وحيا) وتختص به الأنبياء .

و يقرر الغزالى أن الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور من غير طريق التعلم والدراسة والكتابة ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرؤ من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . .

إلا أنه مع ذلك يصرح بأنه « إذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول ، و ينقضى العمر قبل النجاح فيها ، وكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ·

لقد زعموا أن ذلك يضاهى مالو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، ثم يقول قائلهم : فأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ؟!

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، ومثله مثل من يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز . إن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً . فكذلك هذا !

لابد أولا من تحصيل ماحصله العلماء وفهم ماقالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة [1] .

فليتدبر هذا الكلام جيداً أولئك الغافلون ؛ ليعرفوا أن طريق الآخرة معرفة وعمل ، كما أن طريق الحياة علم وجهاد ؛ وليعلموا أن الغزالي وهو من أقطابهم في القمة لم يبلغ ماانتهى إليه إلا بالكفاح الطويل في تحصيل المعرفة.

— ٢ —

قسم الغزالي « إحياء علوم الدين » أربعة أقسام ، أو أربعة أرباع كما سماها :

(١) ربع العبادات : ذكر فيه العلم ، وقواعد العقائد ، وأسرار الطهارة ،والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار والدعوات ، والأوراد وأوقاتها . وقد ذكر في هذا القسم من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها مايضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه ، .

(٢) ربع العادات : يشتمل على آداب الأكل ، وآداب النكاح ، وأحكام الكسب ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسماع والوجد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وآداب المعيشة ، وأخلاق النبوة .

وفيه ذكر أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها .

(٣) ربع المهلكات : وقد شرح فيه عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفات شهوتى البطن والفرج، وآفات اللسان ، وآفات الغضب والحقد والحسد ، وذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والعُجب، وذم الغرور .

وقد درس في هذا القسم كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه ،وتطهير القلب منه، وذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته، ثم ذكر سببه الذى يتولد منه ، والآفات التى تترتب عليه، والعلامات التى يعرف بها ، وطرق المعالجة للتخلص منه .

(٤) ربع المنجيات : وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقرّبين والصدّيقين التى بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وقد ذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها وثمرتها وعلامتها وفضيلتها .

وتلك المنجيات هى : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء ، والفقر والزهد ، والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة ، والتفكّر ، وذكر الموت .

وقد قدم الكتاب بالكلام في فضل العلم والتعليم ، ليكشف عن العلم الذى يعبد الله تعالى به ، حتى تصح العبادة ؛ إذ كان من العلم ماهو نافع وما هو ضار ، وما هو محمود، وما هو مذموم ؛ وفى فنون العلم التى شغل بها معاصروه، وحكم كل علم منها .

(١) راجع الجزء الثانى من الإحياء (ص ١٧ — ١٩) من هذه الطبعة .

والذى ينظر فى هذه الموضوعات يتضح له أنها تعالج النفس الإنسانية على أوسع نطاق ، وتتناولها ، من أكثر جهاتها ، وتدرس شتى علاقتها .

لقد درس فيها الغزالىّ الإنسان مع ربه ، والإنسان مع نفسه ، والإنسان مع غيره من الناس . وتهدف تلك الدراسات إلى استخلاص أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ؛ أو معرفة الأسباب التى تكون بها الحياة سبيلا إلى الآخرة ؛ أو تسخير مامنح العبد من إرادة وقوة واختيار ؛ لتكون حجته حين يسلب الحياةوالإرادةوالقوةوالاختيار.

أغراض تتلاقى جميعاً ما دامت حياة الإنسان محدودة ، وما دامت إرادته وقوته واختياره موقوتة بهذه الحياة المحدودة ؛ ومادام العقل والاستدلال والمعرفة تُفْضِي جميعاً إلى التسليم بالبعث والنشور والحساب والجنة أو النار .

وكان الذى حفز الغزالى إلى تلك البحوث المستفيضة مارأى من فتور الاعتقادات فى أصل النبوة، ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة ، وتحقيق شيوع ذلك بين الخلق ، فنظر فى أسباب الفتور وضعف الإيمان، فإذا هى أربعة :

١ ــ سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .

٢ ــ وسبب من الخائضين فى طريق التصوف .

٣ ــ وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ ــ وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

وقد تتبع مدة آحاد الخلق ، يسأل من يقصّر منهم فى متابعة الشرع عن شبهته ، و يبحث عن عقيدته وسرّه ، ويقول له : مالك تقصر فيها ؟

فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها ، وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟

وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبّر نفسك فى طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفىّ الذى هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ! وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة . . .

وقائل ثان يدّعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً يرق عن الحاجة إلى العبادة .

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة .

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ! وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات ، فما أنا من العوام والجهال ، حتى أدخل فى حجر التكليف ؛ وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغنٍ فيها عن التقليد[1] . . ! !

إنك تقرأ هذه الشبه العارضة التى جعلت الدين وقواعد العبادات مجالا للتردد والشك وانصراف هذه الطبقات عن العمل ، والأسباب التى ينتحلها المقصرون ، والأعذار التى يدلى بها الغافلون . وتقرأ فى (الإحياء) تفنيد كل دعوى من هذه الدعاوى ، ودحض كل شبهة من أمثال تلك الشبهات ؛ بطريق النص الثابت ، وبطريق العقل والمنطق الذى يسلم إلى اليقين .

— ٣ —

إنك تقرأ فى الإحياء بحوثا شهية عميقة فى علم النفس والفلسفة والاجتماع والتصوف إلى جانب ماتطالعه فيها من أصول الدين وحقائق التشريع .

وإنك لتقرأ من أصول التأديب وقواعد التربية ومراعاة حال النشء فى تلقى العلوم فى هذا الكتاب مايضارع آراء كبار فلاسفة التربية وعلم النفس ، ويكفى أن نشير إلى ما كتبه فى « وظائف المرشد المعلم »[2] وأنه مهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه التى تحتم عليه:

(١) الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه ...

(٢) الاقتداء بصاحب الشرع الشريف، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً . . فإن المال ومافى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً ، وذلك هو الانتكاس...

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفىّ ، قبل الفراغ من الجلىّ ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى مايمكن . . .

(٤) ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ماأمكن، ولايصرح، وبطريق الرحمة، لابطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار .

(٥) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه . . . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل للمتكفل

(١) المنقذ من الضلال ١٤٢ .

(٢) الإحياء ١/ ٦١ من هذه الطبعة

بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ، وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله . فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، ولا ينبغى أن يفشى العالم كل علمه إلى كل أحد ، ولذلك قيل : كِلْ لكلٍّ عبد بمعيار عقله ، وزِنْ له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

(٧) أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلىّ اللائق به ، ولا يذكر له أن وراءه تدقيقا يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلىّ ، ويشوّش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه .

(٨) أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذّب قوله فعلُه ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العملُ العلم منع الرشد . وكل من تناول شيئا وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .

وما بسطه الغزالى فى هذه الآراء هو ما يقوله المربون المحدثون فى الانتقال بالمتعلمين من الجلىّ إلى الخفىّ ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، وما يقوله علماء النفس فى الإدراك وأثر الحواس .

ونجد هذا الكتاب زاخراً بمثل هذه الدراسات ، حتى إنك لتشعر حين تقرؤها بالحاجة الملحة إلى دراسة « الغزالى المربى » وسيجد الدارس مادة واسعة الأطراف ، لا تتسع تلك الصفحات لا ستقصائها ، ولكنا نجتزئ بهذه الإشارات إلى ما حوت تلك الأصداف من كنوز .

— ٤ —

ودراسة صلة الإنسان بخالقه دراسة لأصول العقائد والعبادات التى فرضها عليه ، والتى يلتمس بها الزلفى إليه . وقد أشرنا إلى الموضوعات التى درسها فى تلك الأصول . وبقى أن نذكر أن الغزالى لم يكتف فى تلك العبادات بذكر أحكام الشرع كما يفعل الفقهاء فى دروسهم وفى تصانيفهم ، ولكنه أضاف إلى تلك كثيراً من البحوث الروحية والنفسية والعقلية ، وتعمق فى فهم أسرارها وحكمها وسبل إجادتها وتخليتها من الشوائب بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وفى استيعاب ليس له نظير .

فليست (الطهارة) عند الغزالى كما هى عند الفقهاء : طهارة من الحدث تختص بالبدن ، وطهارة من الخبث تكون فى البدن والثوب والمكان ، فإن هذه مرتبة واحدة منها . والمرتبة الثانية عنده : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، والثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة . والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى [1] ، ثم يفيض بعد ذلك فى ألوان هذه الطهارات وأسبابها ووسائلها وغاياتها ، مع ما يوافق الحقيقة التى

(١) الإحياء ١/١٣١ من هذه الطبعة .

يدعو إليها ، والشريعة التي فقهها وأجاد تحصيلها ، والعقل الذي عرف موارده ومصادره .

و(الصلاة) عنده مناجاة ، والمصلي مُناجٍ ربه عزّ وجلّ ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة – وإذا كان الفقهاء يفتون بصحة الصلاة مع الغفلة ، فإن الغزالي يتأدب في الرد عليهم ، ولا يطمع في مخالفتهم فيما أفتوا به ، ويعلل بأن ذلك من ضرورة الفتوى .

ولكن الذي يعرف سر الصلاة يعرف أن الغفلة تضادها ، ثم يفرق بين العلم الظاهر والعلم الباطن ، ويرى أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع [1] .

ورأيه في (الزكاة) أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ؛ وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحِّد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق ، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا ، وبسببها يأنسون بهذا العالم ، وينفرون عن الموت ، مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ وذلك بالجهاد . . . والذين صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ، نزلوا عن جميع أموالهم ، فلم يدّخروا ديناراً ولا درهماً ، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم . حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوامّ بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع [2] .

وهكذا نجد أنفسنا دائماً ونحن نجول في (الإحياء) أننا أمام عالم كبير عرف الشرع وحفظه وفقهه وعمل به ، ورأى وراء هذا التشريع العام الذي ينتظم المسلمين جميعاً ؛ تشريعاً خاصّاً هو في حقيقته أثر لذلك التشريع العام وتمكينٌ له ، وهذا الخاصّ فضل وزيادة ونافلة بعد أداء الفروض التي لم يغفل (الإحياء) ركنا من أركانها أو سنّة من سُنَنِها .

وهذا هو التصوف المستنير الذي أشرنا إليه ، تجد فيه الحجة البالغة ، وتجد فيه التقوى والورع وقطع العلائق بالناس وبالمال وبالجاه وبالولد وبالمنصب ، بل قطع علائق النفس بما تحبه وتحرص عليهم .

— ٥ —

في تلك الدراسات يجد المتفقه رغبته ، ويجد المتصوّف طلبته ، ويجد صاحبُ العقل والباحثُ عن اليقين ما شاء من حجة بالغة وبرهان مستبين ، وبهذه السّعة وبذلك الشمول أحيا الغزالي علوم الدين ، أحياها في الحياة المضطربة الجادة العاملة ، والماجنة الهازلة ، وأحياها في نفوس الزهاد ورجال الطريق ، ووصل بينهما وبين حكمة العقل والمنطق التي تفضي إلى الصحيح من النتائج ، وتلزم الشاك المتردد بالإذعان والتسليم وصدق الاعتقاد .

والناس عند الغزالي ثلاثة أصناف ، ولكل صنف منهم أسلوب خاص يعالج به ما عنده من الجهل أو الشك أو الغرور .

---

(١) الإحياء ١٦٢/١

(٢) الإحياء ٢٢٠/١

(١) أما الصنف الأول : فهم (العوام) ، و يصفهم بأنهم البُلْهُ ، و بأنهم أهل السلامة . وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق . وهم يُدعون إلى الله بالموعظة .

(٢) والصنف الثانى : (الخواص) ، وهم أهل الذكاء والبصيرة ، وفيهم ثلاث خصال : إحداها القريحة النافذة والفطنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغريزة جبِـلّيّة لا يمكن كسبها . الثانية : خلوّ باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث مسموع ، فإن المقلِّد لا يصغِى ، والبليد و إن أصغى لا يفهم. الثالثة : أنه يؤمن أن أستاذه (الغزالى) من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك . وهؤلاء يعالجهم الغزالى بأن يعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم عن قرب ، ويدعوهم إلى الله بالحكمة ، كما دعا العوام بالموعظة الحسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ . فعلم أن المدعوّ إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، و بالموعظة الحسنة قوم ، و بالمجادلة قوم . فإن الحكمة إذا غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وكذلك المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها ، كما يشمئز طبع الرجل القوىّ من الارتضاع بلبن الأم .

(٣) والصنف الثالث : (أهل الجدل) ، وهم طائفة فيهم كياسة ترقّوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة ولكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً . وهؤلاء يدعوهم بالتلطف إلى الحق ، من غير أن يتعصب عليهم أو يعنفهم ، ولكنه يرفق بهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن .

لقد نظر إلى كل طبقة من الطبقات التى يتكون منها المجتمع الإسلامى ، وعرف فلسفتها فى الحياة وما تعالجه من أسباب السّعادة ، وما تعانيه من أسباب الشقاء فى الفكر والعمل ، ولا نعرف هذه السمة وذلك الشمول على هذا النحو مثل ما نجدها فى إحياء علوم الدين .

ويمكن أن يلحق بصدق الاعتقاد وأصول العبادات ــ وهما كما قدّمنا صلة بين الإنسان وربّه وقيام بطاعته وامتثال لأمره ونهيه وفيهما دلالة على المحبة ــ ما كتبه فى الربع الرابع من الإحياء ، وهو (ربع المنجيات) لأنه يختص بتصفية النفس من الشوائب وتطهيرها من الآثام ، والارتقاء بها إلى درجة المعرفة ، وفيه من أصول التصوف ومبادئه الشىء الكثير .

ومقدمة (التصوف) التوبة عما اقترفه العبد قبل أن يسلك طريق المعرفة ، ثم آداب السلوك وهى : الصبر ، والشكر والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا ، والتوحيد ، والتوكل ، والمراقبة ، والمحاسبة ، والتفكر ، والنية ، والإخلاص ، والصدق .

وقد تبدو هذه الصفات من قبائل الفضائل العامة ، التى ينبغى توافرها فى الإنسان الفاضل ؛ ويطالب الناس جميعا بالتزامها ، ماداموا يتطلّعون إلى منزلة الفضل ؛ وهذا صحيح لاشك فيه . ولكن الفضلاء قد يحسبون كذلك ببعض تلك الصفات ، أو بتحصيل القليل من بعضها ، أما أهل الطريق المتطلعون إلى المعرفة فإنهم يجمعونها جميعاً

ويصلون بها إلى أقصى درجاتها ؛ وهم يجاهدون نفوسهم جهاداً عنيفاً ، ويحملونها على ما تكره ، مما يعدّه غيرهم إسرافاً وعنتاً ، ولا يعترفون بالضرورات ، بل يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ؛ ولا ينبغي لسالك الطريق أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . « بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرّم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة ، فقد روى أن رجلا من العباد كلّم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست ، ويحكى أن أحدهم تكشفت له جارية ، وهو في بعض المغازى ، فنظر إليها ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت ، وقال : إنك للحّاظة إلى ما يضرك ! ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على عيشه »[1] .

ففي هذا الربع ، ربع المنجيات ، يظهر ما يتحلّى به القلب من الصفات المحمودة التي ذكرت ، وهو يقابل ما في الربع الثالث ، ربع المهلكات ، الذى بسط فيه ما تجب تزكية النفس وتطهيرها منه ، وهي شرور وآثام مردية ، كالشّره والغضب والكبر والرياء والعُجْب والحسد وحب الجاه وحب المال وغيرها .

وقد قدم (المهلكات) على (المنجيات) لأن الأولى تطهير وتخلية ، والثانية تزكية وتحلية ، والأولى في أصول التربية والتهذيب مقدمة على الثانية . ولأن العبد لا منجاة له من الوقوع فيما ذكره في المهلكات ، ولكن في استطاعته النهوض منها وجبرها بالمنجيات ، ولأن التجرّد للخير المحض دأب الملائكة المقربين ، والتجرد لمحض الشرّ دون العمل على تلافيه سجية الشياطين ، ولكن الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين .

— ٦ —

وبعد فإن كتاب « إحياء علوم الدين » جماع عقليات ثلاث :

(١) : العقلية الشرعية : وتبدو آثارها فيما بسطه الغزالي من أحكام الفقه وأصوله ، وما اعتمد عليه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين ، ومذاهب الأئمة رضي الله عنهم ، وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والحديث والتأويل ، وهو يعد أصول العلوم الشرعية أربعة : كتاب الله عزّ وجلّ ، وسنّة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . ويرى أن كتب الفقه تبحث في الحياة

---

(١) الإحياء ٤/٣٩٣ .

الأولى ، وأن الفقهاء هم علماء الدنيا ؛ وعلل لذلك بأن الناس لو تناولوا الدنيا بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها بالشهوات ، فتولدت منها الخصومات ، فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا ، وهو معلم السلطان، ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم، لتنتظم باستقامتهم أمورهم الدنيوية . والملك والدين توأمان، والدين أصل ، والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم ، ومالا حارس له فضائع [1] .

ولا يسلم له هذا الرأى كاملا ، لأنه إن استقام فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام .

والذى دعاه إلى هذا الوصف أنه جعل هذا العلم علمين : أحدهما يتصل بمصالح الدنيا ، والثانى يتعلق بمصالح الآخرة ، وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه، وهو الذى خص به الكتاب الثالث من الإحياء . والمحمود هنا غير فرض الطاعة ، والمذموم هنا أيضاً غير المعصية ، فإن للطاعة ثوابها ، وللمعصية عقابها . ولكن المرضىّ فى علم الآخرة هو ما يقرب إلى الله ، ثمرة للمعرفة الكاملة ، والفناء ، وقهر النفس وتزكيتها .

ومثال ذلك الصلاة ، فإن الفقيه يُفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها إلى آخرها ، مشغولا بالتفكر فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير . ولكن هذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الإسلام لا ينفع، ولكن الفقيه يُفتى بالصحة ، أى أن ما فُعل حصل به امتثال صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة، وبه ينفع العمل الظاهر ، فلا يتعرض له الفقيه .

وعلى كل حال ، فإن الغزالى وإن عدّ الفقه علم الدنيا والفقهاء علماء الدنيا ، فقد درس فى الإحياء هذا العلم ، علم الفقه ، دراسة مستفيضة تدل على الفهم والاستيعاب ؛ إذ كانت الشريعة سُلّم الحقيقة، والعبادة سبيل المعرفة الحقة التى نشدها وعدّ من رجالها .

(٢) العقلية الفلسفية : ونعنى بها يقظة العقل ، والقدرة على التبصر ، وفهم الكون بظواهره وشواهده ، ومحاولة الوصول إلى أعماقه ، وإلى سر الحياة والأحياء ؛ ودراسة النصوص دراسة تخضع لأحكام العقل والتفكير ؛ والتغلب على الأخطاء الشائعة ، والتقاليد التى تعارض المنطق السليم والتفكير الصحيح .

---

(١) الإحياء ١/٢٤

وقد أشرنا فيما سبق إلى نزوع الغزالي إلى التحرر ، ونفوره من التقليد الذي لا فضل فيه للمقلد ، وفي الإحياء كثير من الشواهد على ذلك .

فقد بحث الغزالي كثيرا من المسائل الفلسفية ، ومسائل علم الكلام ، التي تتصل بالله تعالى وذاته وصفاته ، كما بحث في أعمال العبد ، ومبدأ الخلق وغايته .

ومن ذلك البحث الفلسفي الذي عقده في « ربع المهلكات » في شرح عجائب القلب ، وفي بيان معنى النفس والروح والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء .

فلفظ (القلب) له معنيان : أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود . . . الخ .

والمعنى الثاني للقلب : أنه لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب .. وتعلقه بالقلب الجسماني يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان . . .

و (الروح) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا استنار به . والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ (الروح) أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب والروح معنى آخر ، وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهذا هو أحد معنيي القلب .

ولفظ (النفس) معان كثيرة ، ومن تلك المعاني ما يريده أهل التصوف في استعمالاتهم ، وهي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، وهي المعنى الجامع لقوة الشهوة والغضب في الإنسان ، فإنك تراهم يقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك » . ومن معانيها نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها .

ثم (العقل) وقد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب . وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب .

هذا شيء قليل نشير به إلى جهاد الغزالى فى تلك الدقائق التى حيرت المفكرين وشغلت الفلاسفة، وقد عرض لها من قديم فلاسفة اليونان، ولا تزال إحدى مشكلات الفلسفة المعاصرة . ولكلام الغزالى ودراسته مكان ملحوظ بين تلك الدراسات قديمها وحديثها .

ثم الفلسفة الأخلاقية ، وقد أفاض فيها فى المنجيات والمهلكات والعادات ، وقد عرض فيها للفضائل الإنسانية على نحو لم يسبق له مثيل فى القديم والحديث . وما بالك برجل يعالج الفضائل الكامنة والرذائل المستترة ، فضلا عن الأخلاق الظاهرة والسلوك الملحوظ . ولا نحب أن نستشهد على ذلك بشيء من النماذج ، فإن المطالع لأكثر أبواب الإحياء يجد فيها مصداق ما نقول .

(٣) الغاية الصوفية : ظهر للغزالى أنه لا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظ أحواله فإذا هو منغمس فى العلائق . ولاحظ أحواله ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا هو فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكر فى نيته فى التدريس فإذا هى غير خالصة لله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقن أنه على شفا جُرُف هار ، وأنه قد أشفى على النار ، إن لم يشتغل بتلافى الأحوال [1] .

وقد رأى العلوم التى حصلها لا تجدى فيما أراد ؛ إلا بنفحة من الله الذى يهب من يشاء من عباده الإيمان والمعرفة ، ورأى ذلك محتاجاً إلى جهد ومشقة ، وعلم وعمل .

وقد ساق الغزالى كثيراً من شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة ، لا من التعلم، ولا من الطريق المعتاد [2] ، من ذلك قوله تعالى « وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » أى مخرجاً من الإشكالات والشبه ، ومعنى يرزقه من حيث لا يحتسب : يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة . . وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » . . وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علمان فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع . . » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سرٌ من أسرار الله تعالى يقذفه فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشراً . . وفى الحديث « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . . » .

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ١٢٨

(٢) الإحياء ٢٢/٣ .

وقد أورد كثيراً من الأدلة التي تؤيده في إمكان الكشف والإلهام بغير الأسباب الظاهرة ، مما وقع للخلفاء الراشدين وأهل التقوى والورع والزهد والتصوف . وهذا هو العلم اللدُني ، وهو غير العلم الدنيوي الذي يكون بوسائط تعلم الخلق .

وسبيل هذا العلم مشقة وجهاد ، وحمل النفس على مالا تطيقه أكثر النفوس ، ولقد كتب الغزالي في هذا الجهاد كثيراً حتى زخر « الإحياء » بالتصوف ، أكثر مما زخر به من أصول التشريع ، حتى هذا التشريع قد يكون درجات ومفاهيم عند المتصوفة تختلف عنها عند غيرهم .

ومابالك برجل يجعل الدرجة السفلى من الزهد أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدي العبد من الأهوال . و يسميه (زهد الخائفين) ؟ ويجعل الدرجة الثانية (زهد الراجين) لأنهم يزهدون رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته . أما الدرجة العليا عنده فهي (زهد المحبين) وهم العارفون ، لأنه لايحب الله تعالى إلا من عرفه ، وزهدهم ليس عن رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا تلتفت قلوبهم إلى الآلام ليقصدوا والخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصدوا نيلها والظفر بها .. وهذا هو الزهد الحقيقي والتوحيد الحقيقي الذي لايطلب فيه غير الله ، لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفي .

وما أكثر مايزخر به الإحياء من آثار التصوف ، مما يدل على تشبع الغزالي بفكرته و إيمانه بأنه الطريق الموصل إلى المعرفة بالله والقرب من رحمته ، وتجد أثر هذا التشبع والفهم العميق لفلسفة التصوف في أبواب كثيرة نخص بالذكر منها الجزء الرابع من هذه الطبعة في (ربع المنجيات) في أبواب الخوف والرجاء والصبر والشكر والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا . . . الخ .

☙

وأخيرا . . .

تلك بعض إشارات إلى الينابيع الطاهرة والمناهل الصافية ، التي يفيض بها هذا الأثر الخالد ، يقصد إليها المصلحون والمفكرون من طلاب الشريعة وطلاب الحقيقة ، والباحثون في أسرار الاعتقاد وحقائق الإيمان والأعمال وقواعد السلوك ، ليجدوا فيها غذاء لعقولهم ، وريا لظمئهم ، وشفاء لأدواء قلوبهم ، وتبديداً لظلمات الحيرة في نفوسهم وأمنا في سلوكهم ، ونجاة من موبقات هذا السراب الأخاذ في دنيا الباطل والضلال ، وسبيلا إلى السعادة بالمعرفة النافعة والحكمة البالغة .

وقد كتبت هذه الكلمات استجابة للرغبة الكريمة التي أبدتها (دار إحياء الكتب العربية) في تقديم هذه الطبعة من (إحياء علوم الدين) الذي عظم نفعه ، وعمت بركته ، منذ كتبه حجة الإسلام الغزالي ، الذي نعتز به عالماً بدين الله ، ومؤمناً بالله ، وداعياً إلى الله ، ونعتز به مسلماً من أولي البصيرة واليقين ، وعلماً من أعلام الصوفية وفلاسفة الإسلام .

وأقدمت على هذا العمل مستعيناً بالله ، حتى وفق إلى هذه الكلمات ، التي أرجو أن تكون مفتاحاً للكشف عن شخصية الغزالي وعقليته ومعارفه ، وما بث في (الإحياء) من آيات الهدى والحكمة .

والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد في الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير ؟

مصر الجديدة { ٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ
٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ م }

بدوي أحمد طبانة



مواد المقدمة